مظاهر الحياة في قصر الخان الأعظم قوبيلاي
في ضوء رحلة الرحالة البندقي ماركوبولو

دكتوره
منال محمد السيد
أستاذ تاريخ العصور الوسطي المساعد
كلية الآداب –جامعة بني سويف

الملخص

يتناول البحث وصف الحياة داخل قصر الخان الأعظم قوبيلاي من خلال مشاهدات الرحالة البندقي ماركو بولو الذي جاء إلى بلاط الخان قوبيلاي فاستقبله الخان بالتكريم والحفاوة. وكان ماركو بولو شابًا في السابعة عشر من عمره ولم يمض وقت طويلاً حتى وثق به الخان وعينه في الوظائف العامة وجعله مستشارًا له وكان يرسله إلى كثير من سفاراته واستمر ماركو بولو لمدة سبع عشرة سنة في قصر الخان قوبيلاي حيث تمكن خلالها من وصف قصر قوبيلاي وما كان عليه من الثراء والرفاهية, فسجل تفاصيله بدقة شديدة. وما كان يجري فيه من احتفالات وولائم, كما أشار إلى زوجاته وأولاده وحاشيته.

فقد جاء هذا الوصف ليدل على ثراء وعظمة هذا الخان ومدى مكانة الرحالة ماركو بولو عند الخان الأعظم, الأمر الذي جعله يعرف كل شيء داخل هذا القصر الكبير ويصفه بدقة.

Aspects of Life in the Palace of the Great Khan (the Khan of Khans) Kublai in the View of the Venetian Traveler During his Travels

The research deals with the description of life inside the palace of the Great Khan; Kublai in the views of the Venetian Traveler; Marko Polo who has come to the Khan's palace and has been received with warm welcome by the Khan Marko Polo was a Young man of seventeen years; it has not been a long time since the Khan trusted and appointed him as his adviser (the Khan's adviser).

Marko Polo has been sent to a lot of embassies. Marko Polo has stayed in the Khan's palace for seventeen years, so he could describe the palace, the Khan's richness, and luxury accurately. Polo could register the celebrations and feasts in the palace, as well as the Khan's wives and retinue.

This description shows (denotes to) the Khan's richness and greatness besides the position of the traveler Marko Polo for the the Great Khan, and as a result; Marko Polo could know and describe everything inside the great palace accurately.

ولد ماركوبولو Marco Polo بمدينة البندقية عام (٦٥٣هـ/١٢٥٤م) في أسرة نبيلة تشتغل بالتجارة، وكان والده نيكوبولو Nica Polo وعمه مافيو بولو Maffio Polo غائبين ساعة مولده في مهمة تجارية في بلاد القرم، ولكنهما لم يتمكنا من العودة إلى بلادهم بسبب نشوب حرب شنها التتار على الطريق الذي جاءا منه، فأشارا عليهما البعض بزيارة الخان الأعظم قوبيلاي Kublai Khan (٦٥٨-٦٩٣هـ/١٢٦٠-١٢٩٤م) الذي استقبلها بالحفاوة والترحاب، وطرح عليهما أسئلة كثيرة عن الحياة في أوروبا وبخاصة عن الأباطرة والبابا والكنيسة وجميع ما يجرى في روما(١).

وما لبث الخان قوبيلاي بعد فترة أن أرسلهما إلى أوروبا في سفارة إلى البابا، ليطلبا من قداسته مئة " مبشرًا ليدخلوا أهل كاثاي في دين المسيحية "، كما طلب كذلك شيئًا من الزيت المقدس من قنديل الناووس المقدس، وبالفعل خرج الأخوان لإتمام هذه المهمة، وبعد غياب ثلاثة سنوات استطاعا أن يحصلا على بعض الزيت المقدس. على أن البابا جريجوار العاشر Gregory x لم يرسل معهما مائة من المبشرين كما طلب الخان قوبيلاي، بل عين بدلاً من ذلك راهبين من الوعاظ، ثم تابعوا سيرهما إلى بلاط الخان قوبيلاي، ومعهما الابن ماركو بولو، عام ٦٧٥هـ،١٢٧٥م، واستبقبلهم الخان بالتكريم وبالغ في الحفاوة بماركو الذي كان آنذاك شابًا فتيًا في السابعة عشر من عمره، ولم يمض وقت طويل حتى تعلم ماركو لغة التتار وعاداتهم، الأمر الذي جعل الخان قوبيلاي يعينه في الوظائف العامة(٢).

وسرعان ما جعله مستشارًا له وعهد إليه بالقيام ببعض الأعمال الهامة، ولشدة ثقته به، كان يرسله في كثير من سفاراته، وهكذا استمر ماركو بولو في بلاط الخان قوبيلاي حتى عام ٦٩٢هـ/١٢٩٢م فأمضى بذلك نحو سبع عشرة سنة في الشرق الأقصى، كان خلالها موضع ثقة المغول وإعجابهم، وكان ماركو بولو يتمتع بحافظة قوية، وكان يسرد على مسامع الخان الأخبار العجيبة والروايات الغريبة عن رحلته. وكان قوبيلاي شغوفًا جدًا بالاستماع إلى مثل هذه الأخبار، خصوصًا، تلك التي تتعلق بالأمم المتنوعة، والناس على اختلاف طبقاتهم، وكان يجد لذة كبيرة في الوقوف على ما لهذه الأمم من عادات وآداب. كما كان يجيد الإصغاء إلى القصص العذب(٣).

وفي عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م عاد ماركو بولو إلى موطنه البندقية بعد أن زُود بكثير من المعلومات عن البلاط المغولي في عهد الخان قوبيلاي، وبعد أن إطلع اطلاعًا عميقًا على

كافة الأوضاع التي كانت عليها الإمبراطورية المغولية. في ذلك الوقت وفي بلدة البندقية أملى ماركوا بولو على أحد أصدقائه ويُدعى روستيكيلو كل الأخبار المتعلقة برحلته، فقام بجمعها وتدوينها ونشرها بعد ذلك(٤).

ويُعد كتابه من أعظم كتب الأسفار، حتى الآن، وقد مَر عليه أكثر من ستة قرون، لا يزال المرجع الرئيسي الثقة فيما يتعلق بأجزاء من آسيا الوسطى، والإمبراطورية الصينية المترامية الأطراف. وسيظل كتاب ماركو بولو بالغ الروعة عظيم القيمة لدى كل من الجغرافي والمؤرخ والباحث في الحياة الأسيوية على السواء(٥).

الأمر الذي جعل هذه المادة العلمية الخصبة التي دونت في رحلة ماركو بولو الممتعة، مصدرًا هامًا من مصادر الدراسة للعصر المغولي(٦).

على أية حال، تُعد رحلة ماركو بولو مصدرًا لا غنى عنه للباحث عند التعرض لأوضاع العناصر المغولية في القرن الثالث عشر الميلادي خاصة خلال عصر حكم قوبيلاي، وقد حرص على تفصيل توسعاته وانتصاراته الحربية التي حققها، كذلك تعرض لجوانب من حياته الشخصية وزوجاته الرئيسيات الأربع، وأولاده الذين عينهم في مختلف الولايات في دولته المترامية الأطراف، وقدم لنا معلومات قيمة عن القصر الذي سكن فيه ومظاهر الحياة فيه(٧).

ومع مرور الوقت كثر الاعتماد على كتابات ماركو بولو خاصة المستكشفين والرحالة لاسيما أولئك الذين يبحثون عن الذهب، فقد كانوا أول الأشخاص الذين اعتمدوا اعتمادًا كبيرًا على كتابات ماركو بولو.

فيمكن القول إن رحلة ماركو بولو كانت تثبت حقيقة ماثلة، وهي أن كنوز قوبيلاي وقصوره العجيبة، كانت دافعة ومحركة " كريستوفر كولومبوس " لكي يمخر عباب البحار والمحيطات بسفنه الشراعية في سبيل استكشاف العالم الجديد، وكثير من الأماكن المجهولة على سطح الكرة الأرضية.

وخلاصة القول، إنه كان لكتابات ماركو بولو في وصف ثروات الشرق الأقصى أكبر الأثر في تشجيع الرحالة والرواد والمستكشفين من الأوربيين، وحثهم على اجتياز مجاهل آسيا طمعًا في الاستيلاء على هذه الكنوز. ومنذ ذلك الوقت، نرى المستكشفين الجغرافيين يجدون في البحث عن أسهل الطرق وأقصرها للوصول إلى الشرق الأقصى والهند. ولقد كان لهذه الفكرة أثرها الكبير في استكشاف القارة الأمريكية عن غير قصد.

فلا غرو أن قيل عن ماركو بولو: " إنه قد اكتشف بلاد الصين في القرن الثالث عشر وهو على قيد الحياة، واكتشف أمريكا في القرن الخامس عشر بعد وفاته[٨] عام ١٣٢٤ حيث دفن بالبندقية خارج باب كنيسة سان لورينزو "[٩].

ومن الجدير بالذكر أن المصادر التاريخية المعاصرة على مختلف أنواعها لم تسعفنا بالحديث عن وصف قصر الخان الأعظم قوبيلاي، وما كان عليه من الثراء والرفاهية، ومن أجل ذلك كان من حسن الحظ أن الرحالة ماركو بولو شاهد بنفسه ذلك القصر وعمل به مستشارًا وسفيرًا للخان قوبيلاي، فسجل تفاصيله بدقة شديدة. مما يجعلها مصدرًا أصيلاً لوصف هذا القصر.

أما عن الدراسات السابقة، فهناك دراسات تناولت عصر الخان قوبيلاي واتساع إمبراطوريته في الصين، ووصف العاصمة بكين وما بها من أبنية وشوارع وحدائق، فهناك دراسة تناولت دور المهندس المعماري المسلم اختيار الدين في تشييد مدينة بكين، عاصمة أسرة بوان المغولية بالصين (٦٦٥-٧٧٠هـ/١٢٦٦-١٣٦٨م) تناولت باستفاضة تشييد مدينة بكين وما تحتويه من منشآت[١٠]، في حين لم توجد دراسة قائمة بذاتها عن مظاهر الحياة في قصر الخان الأعظم قوبيلاي بالتفصيل وما كان عليه ذلك القصر من الفخامة والرفاهية والجمال. ومن هنا كان اهتمام هذا البحث بدراسة مظاهر الحياة داخل قصر الخان قوبيلاي.

وقبل أن نستطرد في الحديث عن وصف الحياة داخل قصر الخان الأعظم قوبيلاي، لابد من تحليل شخصة هذا الخان وسياسته في الحكم، والتي أدت بلاشك إلى قوة وازدهار ورفاهية إمبراطورية المغول في عصره.

من الجدير بالذكر أن الإمبراطورية المغولية قد اتسعت وبلغت ذروة الامتداد إلى مختلف أقطار العالم أثناء حكم " قوبيلاي " وعلى أثر حروب المغول في الصين وانقراض حكامها من أسرة " سونج " خربت البلاد واختل الاقتصاد وعم الفقر، وانتشرت المجاعات.

فلما تولى قوبيلاي عرش الصين، حاول جاهدًا أن يصلح ما حدث من تخريب وتدمير، واتسم عهده بحسن معاملته للمغولين، وتعقب قطاع الطرق، وقضى عليهم، كما أمر الناس بالهجرة من الأماكن المكتظة بالسكان إلى الأماكن الخربة المهجورة ليقوموا بإصلاحها وتعميرها.

كذلك اهتم قوبيلاي بالزراعة، فأصلح وسائل الري، وشجع الناس على الزراعة، فأقبلوا عليها، وما لبثت أن ازدهرت، كما أعطى اهتمامًا كبيرًا للتجارة، فمهد الطرق وأنشأ طرقًا أخرى

جديدة، وأقام عليها حراسة قوية، فعم الأمن والسلام وحرية التنقل، وفي ظل هذه الإجراءات كثر تردد التجار المسلمين على الصين، وعظمت أهمية الطريق البحري بين غرب آسيا وشرقها، ونتيجة لذلك راجت التجارة وعم الرخاء(١١).

ونظم أيضًا البريد تنظيمًا دقيقًا، وعني بإنشاء محطات البريد وإعدادها خير إعداد لتقوم بمهمتها على أكمل وجه، وذلك لأهميتها القصوى في تنقل الجيوش المغولية في أوقات الحرب، فضلاً عن مزاياها من الناحية التجارية في أوقات السلم، كما أنها كانت تفيدهم فائدة كبيرة بتزويدهم بالمعلومات الكافية عن كل جزء من أجزاء الإمبراطورية، فكان القائمون على هذه المحطات بمثابة عيون الإمبراطور وأذنه. وفي ذلك يقول ماركو بولو: " إن دور البريد كانت في عهد قوبيلاي منظمة ومرتبة في جميع أنحاء الإمبراطورية إذا كان هذا العاهل المغولي يميل إلى أن يكون مطلعًا في أسرع الأوقات، وبأقرب الطرق على جريان الوقائع والأحداث في كل ركن وزاوية من إمبراطوريته الكبيرة "(١٢).

يضاف إلى ذلك حبه للحكماء والعلماء والمتدينين من سائر المذاهب والأمم، كذلك اهتم اهتمامًا كبيرًا بالفنون والشعراء والكتَّاب والآداب والرسامين والفنانين ودعاهم إلا بلاطه وزودهم بكل ما يحتاجوا إليه، كما أمر بترجمة العديد من الكتب، وفي عام ١٢٧١م أنشأ قوبلاي خان معهد الفلك الإسلامي بالقرب من سور مدينة كاميالوك الشرقي، يُضاف إلى ذلك قام بإنشاء أكاديمية هائكيني غوش يوان (أكاديمية الدولة للتاريخ)(١٣).

كذلك قام قوبيلاي بجمع العلماء وأرباب الحرف والصنائع الذين كانوا قد تفرقوا واختفوا بسبب القتال الرهيب في بلادهم، وحثهم على استئناف أعمالهم، وبذل كل ما في وسعه في سبيل إزالة كافة العقبات من طريقهم.

بالإضافة إلى ذلك كان الخان قوبيلاي محبًا للتشييد والتعمير، حيث أقام مدينة كبيرة بجوار العاصمة خان باليغ (بكين)، ولب إليها كل أنواع الأشجار المثمرة. كما شيد بها العديد من القصور والتي كان من أهمها قصره الكبير الذي كان غاية في الأبهة والفخامة، وآية في فن المعمار والذي سوف نتحدث عنه بالتفصيل في هذه الدراسة من خلال الرحالة ماركو بولو(١٤).

هذا عن سياسته الداخلية وما اتخذه من إجراءات من شأنها أن تؤدي إلى ازدهار إمبراطوريته. لذلك وصفه ابن العبري بقوله: " وظهر منه العدل الحسن والدراية والتدبير والكفاية"(١٥).

أما عن صفاته الشخصية فكانت تغلب عليه النزعة الإنسانية وحب الخير، فأنشأ الملاجئ لإيواء العجزة والضعفاء وكبار السن، كما كان يتصف بالعقل والتدبير. ولكنه كان سريع الغضب، عنيفًا قاسيًا إلى أقصى حد، بحيث أن رجال حاشيته وعظماء دولته، كانوا يختفون عن بصره أثناء غضبه خوفًا وفزعًا منه. وفي الأوقات العادية كانوا يهابونه ويجلونه.

وعرف عن قوبيلاي أيضًا أنه كان واسع الأفق، حر الفكر، فعلى الرغم من أنه كان بوذيًا، إلا إنه كان بعيدًا عن التعصب، ترك الحرية لجميع الأديان، حيث أمر أن يترجم باللغة الفارسية أقسام من القرآن الكريم، والإنجيل والتوراة وتعليمات بوذا(١٦).

فقد وصف لنا الرحالة ماركو بولو بدقة شديدة القصر العظيم للخان قوبيلاي، من حيث مساحته وموقعه والتصميم المعماري الرائع الذي تم تصميمه به وما يحيط به من حدائق تحتوي على أنواع عديدة ومختلفة من الأشجار، كما ذكر الأجنحة العديدة التي توجد بهذا القصر، والخاصة به وبزوجاته ومحظياته وأبنائه، والأجنحة الخاصة التي يوضع بها كل ما هو غالي القيمة والثمن وما يكنزه الخان من سبائك الذهب والفضة والأحجار الكريمة واللالئ وغيرها من الأدوات والأواني المصنوعة من الذهب والفضة.

وفي ذلك يقول الرحالة ماركو بولو: " وإليكم وصفًا لشكله وأبعاده: فأولاً يوجد هناك مربع محوط بسور وخندق عظيم، وطول كل ضلع في المربع ثمانية أميال، وله على مسافة متساوية من كل طرف بوابة دخول، ليحتشد هنا الناس اللاجئون من كل صوب وحدب، وفي داخل هذا التسوير من الجوانب الأربعة، يوجد فضاء براح عرضه ميل تُعسكر فيه الأجناد، وهذا يحدده سور آخر يحوط مربعًا ذا ستة أميال له ثلاث بوابات في الجانب الجنوبي وثلاث في الشمال، البوابة الوسطى منها أكبر من الأخريات، ولا تبرح مغلقة على الدوام إلا في مناسبات دخول الإمبراطور أو خروجه.

فأما البابان الجانبيان فيظلان مفتوحين دائمًا يستخدمها السابلة العاديون. ويقف في وسط كل قسم من هذه الأسوار بناء جميل ورحيب "(١٧).

كما وصف لنا الأبنية الخاصة بالمخزونات العسكرية الملكية وكيف يوضع كل نوع منها في مكان مخصص لها.

فذكر أنه يوجد في داخل التحويطة أو التسويرة ثمانية أبنية تودع فيها المخزونات العسكرية الملكية، حيث يُخصص مبنى واحد لاستقبال كل صنف من أصناف المخزونات وهكذا يحدث مثلاً أن اللجم والسروج والركابات وغيرها من لوازم تجهيز الخيالة، تشغل مخزنًا واحدًا، بينما تشغل القس، والأوتار والكنانات والسهام وغيرها من الأدوات الأخرى التي تخص النشابة (الرماة) مخزنًا آخر، هذا إلى أن الدروع والزرود وغيرها من أنواع المجنات المصنعة من الجلد، تشغل مخزنًا ثالثًا، وهكذا دوارليك.

أما عن حواجز الشرفات المسننة وهي الفتحات الموجودة بأعلى الأسوار فكلها بيضاء، وهذا بدوره يشكل مربعًا امتداده أربعة أميال، كل جانب فيه ميل واحد، كما أن له ست بوابات، تستخدم بنفس شاكلة التحويطة السابقة. وهو يضم بالمثل ثمانية مبان ضخمة، نظمت بنفس الطريقة، وخصصت لخزائن ملابس الإمبراطور.

يضاف إلى ذلك أن الفضاءات والمساحات الممتدة بين أحد الأسوار تزدان بأشجار كبيرة باسقة، كما تحتوي على مروج تحفظ فيها أنواع مختلفة من البهائم، كالوعول، والحيونات التي تفرز المسك، والأيائل السمراء وأصناف أخرى من نفس الفصيلة نفسها. وكل فراغ بين الأسوار، لا تشغله مبان، يملأ بالحيوان على هذا النحو، فالمراعي تحوى الكلأ الوفير والطرق التي تمر فيها تجعل جسرًا يرتفع ثلاثة أقدام عن مستوى المراعي، كما أنها مرصوفة فلا يتجمع عليها وحل، ولا تستقر عليها مياه مطر، وإنما هي على العكس تسيل وتساعد على تحسين حال النبات(١٨).

أما عن وصف ماركو بولو للسراي الخان الأعظم فجاء على النحو التالي: "وفي أحضان هذه الأسوار التي تؤلف حدًا طوله أربعة أميال، تقف سراي الخان الأعظم، وهي تُعد أرحب قصر عرف حتى اليوم، وهو يمتد من السور الشمالي إلى السور الجنوبي، غير تارك الأفضاء خاليا (أو الفناء)، يمر فيه ذهابًا وعودة أشخاص ذوو مكانة والحرس العسكري. وليس له طابق علوي، وإن كان سقفه مرتفعًا جدًا، والأساس المرصوف (أو الطوار) الذي تقف عليه السراي، يرتفع عشرة أشبار إنجليزية – أي سبعة أقدام ونصف فوق مستوى الأرض، وقد بنى حوله من جميع الجهات حائط من الرخام، عرضه خطوتان، إلى مستوى هذا الطوار، الذي

شيدت السراي داخل حدوده، بحيث أن الحائط الممتد وراء التصميم الأرض، والمحيطة بالمبنى كله، تكون شرفة، كل من مشى عليها يبدو للعيان من الخارج، وأقيم على امتداد الحافة الخارجية للحائط " درابزين " جميل، له أعمدة يسمح للناس بالاقتراب منه. وقد زينت جوانب القاعات الكبيرة والأجنحة أشكال الأفعواعات المحفورة والمموهة بالذهب، مع أشكال المحاربين والطيور والبهائم، وكذا الصور الممثلة للمعارك(١٩).

ولم يكتف ماركو بهذا الوصف الدقيق بل نجده يصف بكل دقة وتفصيل الأسقف والسلالم؛ الأمر الذي يدل على قوة ملاحظته واهتمامه بوصف كل شيء في القصر، كما أشاد بدقة وفن من قاموا بتصميم هذه الأسقف والسلالم بقوله: " وقد تفنن مصممو السقف بحيث جعلوه لا يبدو منه للعين من الداخل إلا كل ما هو مموه بالذهب أو مطلي بالألوان ". وتوجد عند كل جانب من جوانب القصر الأربعة مجموعة فخمة من السلالم الرخامية، تصعد بها من مستوى الأرض إلى الحائط الرخامي الذي يحيط بالمبنى، والذي يشكل الطريق المؤدي إلى القصر عينه والقاعة الكبرى مفرطة الطول والعرض وتسمح بإقامة الولائم بها لأعداد غفيرة من الناس. ويحتوي القصر على عدد من الغرف المنفصلة وكلها بالغة الجمال نفذت بطريقة مثيرة للإعجاب حتى يبدو من المستحيل اقتراح إدخال أي تحسين على نسق تنظيمها.

وقد زين السقف من الخارج بألوان شتى، ما بين أحمر وأخضر ولازوردي، وبنفسجي، كما أن نوع عجينة الطلاء هو من القوة بحيث يدوم عدة سنوات، والزجاج المركب بالنوافذ من جودة الصنع والدقة بحيث يحوي شفوفية البلور(٢٠).

كذلك أعطانا وصفًا لأجنحة القصر المختلفة، والخاصة بالخان الأعظم وزوجاته ومحظياته وأولاده والتي تدل على مدى ثراء وغنى الخان الأعظم، ومدى اتساع وضخامة هذا القصر، فذكر ماركو بولو ذلك بقوله: " وتقوم في مؤخرة جسم السراي نفسها مبان ضخمة تحتوي على عدة أجنحة، تودع فيها أشياء الملك الخصوصية أو ما يكتنزه من سبائك الذهب والفضة والأحجار الكريمة واللألئ، وكذلك أوعيته المكونة من صحاف الذهب والفضة. وهنا توجد أيضًا أجنحة زوجاته ومحظياته الأثيرات وأنه في هذا الموقع الهادئ المنعزل ليتصرف في الشئون على راحته، إذ يخلو تمامًا من كل نوع من أنواع الإزعاج وعلى الجانب المقابل للقصر الكبير، وفي مواجهة القصر الذي يقيم فيه الإمبراطور، يوجد قصر آخر، يماثله من جميع الأوجه، وقد خصص لإقامة تشنجيز (Chingis) ابنه البكر، وتراعى في بلاطه جميع

المراسم المرعية في بلاط أبيه، وذلك بوصفه الأمير الذي سيخلف أباه في حكم الإمبراطورية "[٢١].

ولم يكتف الرحالة ماركو بولو بذلك بل وصف لنا الحدائق الغناء التي تنمو فيها الأشجال الجميلة والتي عرفت باسم " الجبلاية الخضراء " نظرًا للمساحة الكبيرة الخضراء التي زرعت فيها كافة أنواع الأشجار الضخمة الجميلة والأنهار التي تمر بها لتجعل منها منظرًا مبهجًا عجيبًا لكل من يراه " وهناك جبل ترابي مصطنع، ارتفاعه مائة خطوة أو تزيد، ومحيطه عند القاعدة يقارب الميل. وهو مغطى بأجمل ما ترى الأعين من الأشجار دائمة الخضرة، وذلك أن جلالته كلما تلقى معلومات عن شجرة جميلة تنمو بأي مكان، أمر بها فاقتلعت بكل جذورها والتربة المحيطة بها، ومهما بلغت ضخامتها وثقل وزنها، أمر بها فنقلت بواسطة الفيلة إلى هذا الجبيل وأضافها إلى المجموعة الخضراء. وهذه الخضرة الدائمة اكتسب اسم " الجبيل الأخضر " (أو الجبلاية الخضراء).

كما أقيم على قمته جوسق زخرفي، أخضر اللون كذلك من أوله لأخره، ويشكل المنظر العام مجموعة: الجبيل نفسه، والأشجار والمبنى، مشهدًا بهيجًا وعجيبًا في الوقت نفسه. وتوجد في القسم الشمالي كذلك، وأيضًا داخل حدود المدينة، حفرة ضخمة وعميقة، كونت بحكمة، حيث اتخذت التربة المأخوذة منها المادة اللازمة لإقامة الجبلاية، وتزود الخضرة بالماء من نهير صغير يجري إليها ولها مظهر بركة السمك، وإن قصر استعمالها على سقي الماشية. ومن ذلك المكان يمر ماء النهير على امتداد سقايه مياه (أي مجرى عيون) عند سفح " الجبيل الأخضر " منطلقًا ليملأ حفرة أخرى كبيرة وشديدة العمق، احتفرت بين القصر الخصوصي للإمبراطور وبين قصر ابنه تشنجيز، وبالمثل ساعدت التربة التي احتفرت من هنا على زيادة ارتفاع الجبيل.

وفي هذا الحوض الأخير مقدار ضخم ومتنوع الأصناف من السمك، تزود منه مائدة جلالته بأية كمية قد يحتاج الأمر إليها. ويصب النهر مياهه في النهاية المقابلة للمسطح المائي، وتتخذ الاحتياطات للحيلولة دون هروب السمك بوضع شبكات النحاس أو الحديد عند مدخلها ومخرجها، وهو زاخر أيضًا بالبجع وغيره من الطيور المائية. ويتم الاتصال بين هذا القصر وذلك بوساطة معبر ملقى عبر المياه. تلك هي صفة القصر العظيم "[٢٢].

كما أعطانا الرحالة ماركو بولو وصفًا دقيقًا للحرس الخاص للخان الأعظم، من حيث عددهم والمهام التي يقومون بها والنظام الذي يعملون به بكل دقة والتزام.

فأشار إلى ذلك بقوله: " يتألف الحرس الخاص للخان الأعظم، كما هو معلوم للجميع، من اثنى عشر ألف فارس، يطلق عليه اسم كاسيتان " Kasitan " ومعناه "الجند المخلصون لسيدهم" ومع هذا، فليس مرد احاطته بحرسه أن هناك أي مخاوف تساوره، ولكن ذلك يعد مسألة أبهة رسمية. وهؤلاء الجند الاثنا عشر ألفًا يقودهم أربعة ضباط عظام، كل واحد منهم على رأس ثلاثة آلاف، وكل ثلاثة آلاف منهم تقوم بأعمال مستديمة في القصر، لمدة ثلاثة أيام متعاقبة بلياليها، فإذا انتهت المدة حل محلهم فريق آخر، فإذا اتمت الفرق الأربع أداء واجبها، عاد الدور على الأولى مرة ثانية. وفي أثناء النهار، لا يغادر القصر التسعة آلاف الذين ليست عليهم نوبة الحراسة، ومع ذلك الأمن كانوا يعملون في خدمة جلالته، أو كان أفرادها يستدعون لبعض شؤون المنزلية. وفي تلك الحالة ينبغي لهم الحصول على إذن بالتغيب عن العمل من ضابطهم المتولي الأمرة، وإذا حدث، نتيجة لأي حادث خطير، كأن يكون والد له أو أخ أو أي قريب داني القربى مشرفًا على الموت، مما يرض عودتهم للتأخير، وجب أن يقدموا التماسًا إلى جلالته لمد إجازتهم. ولكن في أثناء الليل يأوى هؤلاء الاثنا عشر ألفًا إلى ثكناتهم "[٢٣].

ولم يكتف الرحالة بذلك، بل وصف أيضًا بكل دقة المجالس العامة للخان الأعظم والموائد التي تُقام ويحضرها جميع النبلاء وما تحتوي عليه هذه الموائد من أطعمة وأشربة مختلفة، والأواني الذهبية والفضية التي تقدم فيها هذه الأطعمة والأشربة والمراسم التي تتم عندما يشرب الخان ومن معه من النبلاء على النحو التالي:

عندما يعقد جلالته مجلس بلاط فخيم وعلني يجلس من يحضرونه على الترتيب التالي: توضع مائدة الملك أمام عرشه المرتفع، ويتخذ مجلسه في الجانب الشمالي ووجه متجه نحو الجنوب، وتليه عن يساره الإمبراطورة وعن يمينه على مقاعد أخفض قليلاً أبناؤه وأحفاده وأشخاص آخرون يمتون إليه بأصرة الدم، أي أنهم ممن ينحدرون من نفس العائلة الإمبراطورية ومع ذلك فإن مقعد تشنجيز، ابنه الأكبر، يرتفع قليلاً عن مقاعد أبنائه الآخرين، الذين تكون رؤوسهم تقريبًا عند مستوى قدمي الخان الأعظم.

أمَّا الأمراء الآخرون والنبلاء فأماكنهم إلى مناضد أخفض أكثر، وتجرى مراعاة نفس القواعد فيما يتعلق بالإناث، حيث تجلس زوجات أبناء الخان الأعظم وأحفاده وأقربائه الآخرون،

إلى اليسار على موائد أخفض بالمثل تدريجيًا، ثم تجئ زوجات النبلاء والضباط العسكريون؛ حيث أن كلاً منهم يجلس طبقًا لرتبته ومنزلته في المكان المخصص له، والذي هو أهل له. وترتب المناضد بطريقة تتيح للخان الأعظم وقدجلس على عرشه المرتفع الإطلال على الجمع كله(٢٤).

من الجدير بالذكر أنه لا يجوز أن يفهم أن جميع من يجتمعون في هذه المناسبات، يمكن إجلاسهم إلى موائد. على عكس ذلك تتناول الغالبية الكبرى من الضباط (أو الموظفين)، بل حتى من النبلاء، طعامها جلوسًا على بسط مدت في القاعة، كما يقف في خارجها، جمع غفير من الأشخاص الذين يفدون من أقطار مختلفة، ويجلبون معهم كثيرًا من الأشياء النادرة والعجيبة، وبعض هؤلاء مقطعون: (أصحاب اقطاعيات) يرغبون في إعادتهم إلى ممتلكات سحبت منهم، ويظهرون دائمًا في الأيام المخصصة للاحتفالات العامة، أو مناسبات الزيجات الملكية.

كما توجد وسط القاعة التي يجلس فيها الإمبراطور مائدته، قطعة فاخرة من الآثاث، جعلت في شكل خزانة مربعة، طول كل جانب منها ثلاث خطوات. وقد حفرت عليها حفرًا أنيقًا أشكال الحيوانات، وموهت بشكل جره، وصنعت من مواد نفيسة، وحسب لها أن تتسع لما يقارب برميلاً كاملاً، وقد ملئت بالخمر. ويقف على كل جانب من جوانبها الأربعة وعاء أصغر، تقارب سعته البرميل الكبير، وأحدهما مملوء بلبن الأقراس وآخر بلبن النياق وهكذا دواليك بالنسبة للآخرين حسب أنواع الشراب المستعمل(٢٥).

وتوضع في هذا الصوان (البوفية) أيضًا الأقداح أو القناني الخاصة بجلالته، والتي يقدم الشراب. ومنها ما هو مصنوع من الصفائح المذهبة الجميلة. وحجمها من الكبر بحيث إنها حين تملأ بالنبيذ أوغيره من الأشربة، يصبح ما فيها كافيًا لثمانية رجال أو عشرة، وتوضع واحدة من هذه القناني أمام كل شخصين ممن لهم مقاعد على الموائد، مع ضرب من المعرفة صنع بشكل فنجان له يد، وهو أيضًا مصنوع من صفائح المعدن النفيس، لكي تستخدم ليس في إخراج النبيذ من القنينة فقط، ولكن في رفعه إلى الرأس. ويراعى هذا فيما يتعلق بالنساء مثلما يراعى بالنسبة للرجال أيضًا. ومن يملكه جلالته من أدوات المائدة المصنوعة من نفيس المعدن شيء لا يصدقه عقل من حيث المقدار والنفاسة(٢٦).

كما كان يتم تكليف مسؤولين لهم مكانتهم لكي يتحققوا من أن جميع الغرباء الذين يتصادف وصولهم ساعة الحفل، والذين يجهلون آداب اللياقة المتبعة في البلاط، قد حصلوا على أماكن مناسبة، كما أن هؤلاء المشرفين على الموائد يواصلون على الدوام المرور بكل جزء من أجزاء القاعة، ليسألوا الضيوف عما إذا كانوا لم يقدم إليهم شيء ما، أو عما إذا كان أي واحد منهم يرغب في شيء من الخمر أو اللبن أو اللحم أو غيرها من الأشياء، وفي تلك الحالة يقدم إليهم الخدم الشيء المطلوب فورًا(٢٧).

وإمعانًا في الحفظ على سلامة الخان الأعظم وهو بداخل القاعة الكبرى التي تمد فيها الموائد كان يقف عند كل باب من أبواب القاعة الكبرى، أو أي جزء آخر يتصادف وجود الخان الأعظم بداخله ضابطان ضخما الجسم، واحد على كل جانب من جانبي الباب، وقد أشهرا هراوتيهما، بقصد منع أي شخص أن يمس بقدمه عتبة الباب وإرغامه على الابتعاد عنها. فإن حدث بمحض الصدفة أن وقع إنسان في هذا الجرم، جرده هذان الحاجبان من ثوبه. وتختم عليه أن يسترده بالمال، وإذا هما لم يأخذا الرداء، انزلا به عدد من الضربات بقدر ما لهما الحق في إنزاله. ولكن لما كان من الممكن ألا يعرف الغرباء نبأ هذا الخطر، فقد عين بعض الضباط لإدخالهم. ومنعهم يتلقون التحذير من فعل ذلك، ويتخذ هذا الاحتياط لأن مس العتبة يعتبر هناك فأل سوء. على أن قد يحدث أثناء مغادرة الحضور القاعة العامة أن يكون بعضهم متأثرًا بالشراب فيستحيل عندئذ التحرز من تلك الحادثة وعندئذ لا يتم تنفيذ الأمر بدقة(٢٨).

أمَّا عن النظام المتبع في تقديم الطعام والشراب إلى الخان قوبيلاي يتم على النحو التالي الذي ذكره الرحالة ماركو بولو: " ويحتم على الأفراد الكثيرين الذين يتولون الخدمة عن خوان جلالته، والذين يقدمون إليه الطعام والشراب، أن يغطوا أنوفهم وأفواههم بأقنعة جميلة أو غلالات من الحرير المشغول، مخافة أن تتأثر أطعمته أو نبيذه بأنفاسهم، فإذا طلب جلالته الشراب وقدمه إليه الوصيف المنوط، تأخر ثلاث خطوات ثم ركع، وعند ذلك ينطرح على الأرض منبطحين مثله رجال البلاط والحاضرون جميعًا وفي نفس اللحظة، تشرع في العزف جميع الآلات الموسيقية التي تحملها فرقة كثيرة العدد، ولا تبرح تعزف حتى يكف جلالته عن الشراب، وهنا يعود الجمع كله إلى الوضع السوي، وتتكرر هذه التحية المترعية بالتبجيل كلما شرب جلالته قدحًا ".

كما أعطانا الرحالة ماركو بولو وصفًا دقيقًا للعرض الكوميدي الذي كان يحدث بعد انتهاء الوليمة التي كانت تحتوي على كميات كبيرة ومفرطة من الأطعمة والأشربة، فبعد الانتهاء من الوليمة، ترفع الموائد، ويدخل القاعة أشخاص مُختلفوا الأوصاف، بينهم فرقة من الكوميديين واللاعبين على آلات مختلفة، كما يدخلها كذلك البهلوانات والحواة الذين يعرضون مهاراتهم بحضرة الخان الأعظم، ويحظون سرور المشاهدين العظام ومرضاتهم. فإذا انتهت تلك الألعاب، تفرق الناس، وعاد كل إلى بيته(٢٩).

أمَّا عن زوجاته فقد ذكر الرحالة ماركو بولو بأن الخان الأعظم له أربع زوجات يمتزن بالمكانة الأولى ويعتبرن شرعيات ويتولى العرش أكبر أبناء أية واحدة فيهن، بعد وفاة الخان الأعظم. وكلهن تحمل بالتعادل لقب الإمبراطورة، ولكل واحدة منهن بلاطها الخاص. وليس لدى كل واحدة منهن أقل من ثلاثمائة شابة أنثى ذات جمال باهر، بالإضافة إلى عددهم من الغلمان الذين يتولون الخدمة، وغيرهيم من الخصيان، فضلاً عن وصيفات غرفة النوم، بحيث يبلغ عدد الأفراد الملحقين ببلاط كل واحدة منهن عشرة آلاف. وعندما يرغب جلالته في صحبة إحدى إمبراطوراته فإنه إما أن يرسل في طلبها، أو يذهب بنفسه إلى قصرها(٣٠).

كما أشار ماركو بولو إلى أن الخان الأعظم كان يمتلك عددًا كبيرًا من السراري لخدمته، حيث أعطانا وصفًا دقيقًا للطريقة التي يتم بها اختيار الفتيات والمواصفات التي يجب توافرها فيهن، وذلك بقوله: " فإن لديه سراري كثيرات، قد أُعددن لاستعماله الخاص، وأُحضرن من ولاية ببلاد التتار اسمها أنجون. وهي ولاية فيها مدينة بذلك الاسم، يمتاز سكانها بوسامة الملامح وشقرة البشرة. وإلى ذلك الإقليم يرسل الخان الأعظم موظفيه سنة بعد أخرى، أو أدنى من ذلك، حسبما تهوى مشيئته، فيجمعون له ما تبلغ عدته أربعمائة أو خمسمائة من أملح الشواب فتنة وفق تقدير الجمال المبلغ إليهم فيما لديهم من تعليمات. وإليكم طريقة تقويمهم للفتاة من هؤلاء: فعند وصول هؤلاء المبعوثين يصدرون الأوامر بتجميع جميع فتيات الولاية، ويعينون قومًا " ذوي أهلية " لفحصهن، فيقومون يتفقدهن تفقدًا دقيقًا للأعلى حدة، بمعنى أنهم يتفقدون الشعر والملامح والحواجب والفم والشفاة وغير ذلك من القسمات وكذا سيمتريه هذه كلها بعضها مع بعض، ويقدرون قيمتهن ستة عشر قراطًا وسبعة عشر أو ثمانية عشر أو عشرين قيراطًا. حسب ما يتحلين به من درجة أكبر أو أصغر من الجمال. وعندئذ يجرى اختيار العدد الذي يحتاج إليه الخان الأعظم، ربما على معدلات عشرين أو واحد وعشرين قيراطًا، التي حددت عليها

مهمتهم، ثم يحملن بعد ذلك إلى بلاطه(٣١). وعند وصولهن إلى حضرته، يأمر بإجراء فحص جديد لهن على يد مجموعة أخرى من المفتشين، فيجرون اختبارًا آخر بينهن، حيث يحتفظ لمخدعه الخاص بثلاثين أو أربعين أو ستين تقديرًا أعلى. ويعهد بهؤلاء " ابتداء "، وكلاً على حده، إلى عناية زوجات بعض النبلاء، اللواتي يتعين عليهن مراقبتهن بغاية الانتباه، أثناء الليل، للتحقق من أنه ليس بهن آية نقائص مستورة، وأنهن ينمن نومًا هادئًا ولا يحدثن شخيرًا أثناء النوم، وأن أنفاسهن عطرة وأنهن خاليات من الروائح الكريهة في أي جزء من أجزاء الجسم حتى إذا مر بهن هذا الفحص القاسي، قسمن إلى جماعات من خمس، تتولى كل جماعة منهن أثناء ثلاثة أيام الخدمة في جناح جلالته الداخلي، حيث عليهن أن يقمن بكل خدمة تطلب منهم، ثم إنه يفعل بهن ما يشاء. فإذا تمت هذه الدورة، حلت محلهن جماعة أخرى، ولا يزال الأمر على ذلك بالتعاقب حتى يأخذ العدد كله دوره، حيث تعاود الخمس الأولى عملها في الخدمة. ولكن بينما تقوم جماعة بعملها في المخدع الجواني، تكون جماعة أخرى متخذة مكانها في الجناح الخارجي المجاور، حتى إذا احتاج جلالته إلى شيء كالشراب أو الطعام، أشارت الجماعة الأولى بأوامره إلى الجماعة الثانية، فتتولى على الفور الحصول على المادة المطلوبة، وهكذا تتم خدمة شخص جلالته على نحو قاطع على يد هؤلاء الأنثيات الشابات دون غيرهن "(٣٢).

ولم يكتف الرحالة ماركو بولو بكل هذه التفاصيل في اختيار الفتيات، بل أشار أيضًا إلى الفتيات اللاتي لم تتوافر فيهن كل المواصفات وكيف يتم التعامل معهن وما هي الأمور التي يجب أن يقومن بها، وذلك بقوله: " فأمَّا بقية البنات اللواتي حصلت على تقدير منخفض، فإنهن يوكلن إلى مختلف نبلاء القصر، فيعطونهن التعليم والإرشاد في شؤون الطبخ، وصنع الثياب، وغير ذلك من الأعمال المناسبة، كما يخصص لأي شخص يمت إلى البلاط ويعبر عن رغبته في اتخاذ زوجة فينعم عليه الخان الأعظم بواحدة من هؤلاء الأوانس، ومعها بائنة سنية وبهذه الطريقة يتكفل بهن جميعًا بين أفراد نبلائه "(٣٣).

وبعد أن استعرضنا وصف الرحالة ماركو بولو بطريقة اختيار الفتيات لخدمة الخان الأعظم.

فلنتسائل عن موقف أهل الولاية التي يأخذون منها هذا العدد الكبير من الفتيات للخان الأعظم وهل يشعرون بالمضض والغضب لأن الخان يأخذ بناتهن غصبًا بهذه الطريقة ؟

من الجدير بالذكر أن أهل هذه الولاية لم يشعروا بأي غضب من ذلك إذ إنهم على العكس، كانوا يعدون ذلك فضلاً تشريفًا لهم، ومن كانوا أباء الأطفال حسان كانوا يشعرون بالرضا التام لتنازله باختيار بناتهم فهم يقولون: " إن ولدت ابنتي تحت نجم سعيد الطالع في يمن من الحظ، فإن جلالته خير من يستطيع تنفيذ قسمتها على خير وجه بتزويجها من نبيل، وهو أمر ليس في مكنتي أن أفعله "(٣٤).

وفي حالة إن أساءت البنت السلوك، أو وقع لها أي أذى " تفقد به أهليتها " نسب الوالد ما أصابها من خيبة أمل إلى سوء طالعها "(٣٥).

يضاف إلى ذلك أن ماركو بولو أعطانا وصفًا دقيقًا للاحتفالات التي كانت تتم داخل القصر العظيم للخان قوبيلاي ومنها الاحتفال بيوم عيد ميلاد الخان قوبيلاي، وما هو متبع للقيام به في هذا اليوم حيث يحضره كبار رجال الإمبراطورية من أمراء ونبلاء، وأفراد أسرة الخان، وما يتم ارتداءه من ملابس فخمة أنيقة، والهدايا التي يتم تقديمها للخان في ذلك اليوم من جميع رعاياه من التتار، والصلوات التي ترفع للدعاء للخان بطول العمر والعافية والرفاهية. وفي ذلك يقول ماركو بولو: " يحتفل جميع رعايا الخان الأعظم من تتار وغيرهم بيوم ميلاد جلالته عيدًا، وهو اليوم الثامن والعشرين من سبتمبر، وهذا هو أعظم أعيادهم، بعد استثناء العيد الذي يُقام في رأس السنة. وفي يوم هذا العيد السنوي يبرز الخان الأعظم أمام الناس في ثوب فاخر من قماش الذهب، وفي المناسبة نفسها يكسو عشرين ألفًا كاملة من النبلاء وضباط الجيش بأكسية تعادل ما للملك من الفخامة. ومع هذا فهي من خالص الحرير المصبغ بلون الذهب الإبريز، ثم أنهم يتلقون مع الأردية أيضًا نطاقًا جلد الأروي (الشمواه) مشغولاً شغلاً عجيبًا بخيوط الذهب والفضة، وكذلك زوجًا من الأحذية. وبعض الأكسية مزينة بقدر من الأحجار الكريمة والدرر (اللآلئ)، تصل قيمتها إلى ألف بيزنط من الذهب، كما أنها ينعم بها على قرب النبلاء إلى شخص الإمبراطور، حسب درجة الثقة بهم في المهام التي تُوكل إليهم ويسمون كويستاري، ويتعين أن ترتدي هذه الأكسية في الاحتفالات المهيبة الثلاثة عشر التي تقام في الشهور القمرية الثلاثة عشر في السنة، حين يظهر من يرتدونها بمظهر ملكي حقًا. وعندما يتخذ جلالته أي رداء بعينه، يرتدي نبلاء بلاطه أردية مقابلة لرداء الإمبراطور. وإن تكن أقل نقطة "(٣٦).

ومن الجدير بالذكر أن هذه الملابس كانت جاهزة على الدوام والثياب لا تجدد كل عام. ولكنها بعكس ذلك تصنع بحيث تدوم عشر سنوات.

ومن هذا الاستعراض يمكنكم أن تكونوا فكرة عن أبهة الخان الأعظم وفخامته، التي لا تضارعها فخامة أي عاهل في العالم كله.

وفي مناسبة هذا الاحتفال بعيد ميلاد الخان الأعظم يرسل إليه جميع رعاياه من التتار، وكذا شعب كل ممكلة وولاية في طول ممتلكاته وعرضها، هدايا نفيسة، طبقًا لعادة مرعية مقررة(٣٧).

ومن الملاحظ أنه في يوم عيد ميلاد الخان كان يحضر عدد من الأمراء الذين لديهم بعض الطلبات الخاصة بولايتهم، حيث يتوافدون على البلاط لتقديم الهدايا التماسًا لإمارات يدعون فيها بعض الحقوق، وتبعًا لذلك كان الخان قوبيلاي يعطي أوامره بأن يتخذ مع هؤلاء الأفراد ما هو مناسبًا في ولاية الأقاليم والحكومات.

ونظرًا لأهمية هذا اليوم والاحتفال به وكأنه يوم مقدس لدى جميع الرعايا على اختلاف ديانتهم ومعتقداتهم، كان جميع النصارى والوثنيين والمسلمين، ومعهم بقية الناس من جميع الطوائف يرفعون الصلوات الحارة الصادقة كل إلى ربه أو وثنه، أن يبارك المليك ويهبه طول العمر والعافية والرفاهية، وما أبلغ الابتهاجات والتفاريح بعودة عيد ميلاد جلالته! ... (٣٨).

ومن مظاهر هذا الاحتفال بعيد ميلاد الخان الأعظم يتضح لنا مدى حرص الجميع من نبلاء وأمراء ورعايا على تقديم أنفس وأقيم الهدايا إلى الخان تعبيرًا له عن مدى مكانته ومحبته لدى الجميع، كما يدل على مدى ثراء ورفاهية الإمبراطورية المغولية عصر الخان قوبيلاي.

الخاتمة:

من العرض السابق يتضح لنا مدى دقة وملاحظة واهتمام الرحالة ماركو بولو بوصف كل شيء يخص القصر العظيم للخان الأعظم قوبيلاي، فقد جاء هذا الوصف ليدل على مدى ثراء وعظمة ورفاهية هذا الخان، ومدى مكانة الرحالة ماركوبولو عند الخان الأعظم الأمر الذي جعله يمكث عدة سنوات في قصره، ويعتمد عليه في الكثير من المهامات السياسية والدبلوماسية، وبذلك أصبح الرحالة قريبًا من الخان قوبيلاي مما جعله يعرف كل شيء داخل هذا القصر الكبير ويصفه بكل دقة.

الهوامش

(١) ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمة عبدالعزيز جاويد، ثلاثة أجزاء، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م، ج١، ص١١؛

Prowdin (Michael): The Mongol Empire, London 1940, p. 333.

- قوبيلاي: بعد وفاة منكوخان المفاجئة دارت حرب أهلية شعواء على كرسي العرش المغولي: وتفاصيل ذلك إن منكوخان كان له أخ أصغر يُدعى أريق يوكا وكان يحبه ويقربه إليه، وكان يفوض إليه حكم البلاد في أثناء خروجه في الحملات العسكرية الخارجية، بل إن منكوخان كان يرغب في أن يخلفه على عرش المغول، فلما مات منكو أعلن أريق يوكا نفسه خانًا أعظم للمغول، ووجد في ذلك المساندة الكبيرة من جانب المحيطين به والمقربين منه ومن أخيه الخان السابق. ولكن هذا الأمر أغضب أخاه قوبيلاي ولم يوافق عليه، ورأى أنه هو الأجدر لتولي هذا المنصب، ودخل في حرب ضد أخيه عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م والتي انتهت بانتصار قوبيلاي والقبض على أخيه ووضعه في السجن حتى مات عام ٦٦٤هـ/١٢٦٣م واتخذ من الصين حاضرة لدولته.
للمزيد من التفاصيل انظر: رشيد الدين الهمذاني: الإيلخانيون تاريخ هولاكو، ترجمة: محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي، فؤاد عبدالمعطي الصياد، ج١، مجلد ٢، وزارة الثقافة، ص٢٣٤-٢٣٥، ٣٢٩؛ عباس إقبال: تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة: عبدالوهاب علوب، مكتبة المهتدين، ٢٠٠٢م، ص١٨١-١٨٤؛ السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية، ١٩٨١م، ص٢٥١-٢٥٢؛ برتولد شيولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد أسعد عيسى، مراجعة: سهيل زكار، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، دمشق، ص٤٩-٥٢؛ رجب محمود إبراهيم: تاريخ المغول وسقوط بغداد، مكتبة الإيمان، المنصورة، طبعة أولى ٢٠١٠م، ص١٨٠-١٨٢؛

Lunjing: Kublai Khan ans his Empire Shall Be reconsidered in " World Hatizon " China 2014, p. 690-694.

(٢) ماركو بولو: رحلاته، ج١، ص١١-١٢؛

Prawdin (Michael): The Mongol Empire, p. 335; Mike Edwards: Marco Polo in China, Part 11, p. 32.

- الزيت المقدس: اشتهرت الأراضي المقدسة في فلسطين ببعض السلع التجارية مثل الزيت المقدس الذي كان يتم استخراجه من نبات البلسم، والذي اعتقد المسيحيون الأرثوذكس في قدرته على علاج الأمراض النفسية، وكان للبطريرك وحده حق جعل ذلك الزيت مقدسًا. ويقوم ببيعه لرجال الدين.
محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى، طبعة أولى، عين للدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٤م، ص٩٤.

(٣) ماركو بولو: رحلاته، ج١، ص١٢، ١٣، ٣٧؛ فؤاد عبدالمعطي الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة، بيروت ١٩٨٠م، ص٢٢٥؛

Tim Mcneese: Marco Polo and The Realn of Kublai Khan, 2015, p. 3-5; Mike Edwards: Marco Polo, p. 32.

- من الجدير بالذكر أن قوبيلاي أرسل الرحالة ماركو بولو سفيرًا في مهمة هامة للدولة إلى مدينة كارازان، والتي تقع على بعد رحلة ستة أشهر من المقر الإمبراطوري وفي تلك المناسبة تصرف ماركو بولو بحكمة وحصافة بالغة في تدبير الشؤون التي وكلت إليه بحيث أصبحت خدماته موضع القبول الكبير.
ماركو بولو: رحلاته، ج١، ص٣٧.
ومن الملاحظ أن فترة العصور الوسطى شهدت سفارات متبادلة بين قوى أوروبية وأسيوية وعمل في ذلك المجال عدد من الرحالة الأوربيين بينهم ماركو بولو نفسه، وكذلك عدد من الرحالة المسلمين مثل ابن بطوطة الذي أرسله سلطان الهند سفيرًا إلى ملك الصين قائلاً له: " فإني أعلم حبك في الأسفار والجولان " حيث جهزه بما يحتاج إليه، وعين للسفر معه عددًا من الأمراء والمرافقين في هذه الرحلة، كما أرسل معه العديد من الهدايا القيمة. انظر: رحلة ابن بطوطة، مراجعة: درويش الجويدي، المكتبة

العصرية، بيروت ٢٠٠٦م، ص١٣٥.
(٤) ماركو بولو: رحلاته، ج١، ص١٤؛ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص٢٢٦؛
Prawdin: The Mongol, p. 343-344; Tim Mcneese: Marco Polo, p. 9.
(٥) ماركو بولو: رحلاته، ج١، ص١٦؛
Tim Mcneese: Marco Polo, p. 14-15.
(٦) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص٢٢٦؛
Tim Mcneese: Marco Polo, p. 14.
(٧) محمد مؤنس: الرحالة الأوربيون، ص٩٣؛
Tim Mcneese: Marco Polo, p. 19.
(٨) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص٢٢٦-٢٢٧؛
Tim Mcneese: Marco Polo, p. 15; Hilde Brandc (J.R): The Warld's Greatest overland explorer How Marco Polo Penetrated for The Stasia, Washington, 1920, p.509.
(٩) ماركو بولو: رحلاته، ج١، ص١٥؛
Tim Mcneese: Marco Polo, p. 15-16.
(١٠) أحمد جلايلي: دور المهندس المعماري المسلم اختيار الدين في تشييد مدينة بكين عاصرة أسرة يوان المغولية، الصين (٦٦٥-٧٧٠هـ/١٢٦٦-١٣٦٨م)، مقال بمجلة دراسا وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد (١٣)، عدد (١)، جانفي ٢٠٢١م السنة الثالثة عشر.

(١١) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص٢١٩؛ هوخام هليدا: تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين، ترجمة: أشرف محمد كيلاني، ج٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢م، ص٣٣، ٣٥؛
Mike Edwards: Marco Polo, p. 32-33; Bedelova Gulzhan: Kublai Khan's role in The Cultvral development of The Yuan Empire 2013, p. 25-26; Lunjing: Kublai Khan and his Empire Shall Be reconsidered in " World Harizon " China 2014, p. 690-694.
من الجدير بالذكر أن قوبيلاي واصل الفتوحات في الأقاليم الجنوبية للصين التي استمرت نحو عشرين عامًا، تم له خلالها الاستيلاء على تلك الأقاليم نهائيًا، عام ٦٧٨هـ/١٢٨٨م، فقضى بذلك على أسرة سونج ملوك تلك المنطقة، ووحد أقاليم الصين الجنوبية والشمالية تحت حكم المغول.
للمزيد من التفاصيل انظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم البربر ومن معاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، لبنان، طبعة أولى ١٩٩٢م، ج٥، ص٦٢٧-٦٢٩؛ أحمد حطيط: حروب المغول دراسة في الاستراتيجية العسكرية للمغول من أيام جنكيزخان حتى حتى تيمورليك، دار الفكر اللبناني، بيروت، طبعة أولى ١٩٩٤م، ص٥٨؛ بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٦م، ص٢٠٦-٢١٠؛ مان جون: كوبلاي خان ملك المغول الذي أعاد بناء الصين، ترجمة: أحمد لطفي، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٣م، ص١١٧-١٢١؛
Saunders (J.J): The History of Mongol Conquests, London, 1971, p. 120; Henry Howorth: History of Mongol The 9th century to the century. Vol, 1., London 1876, p. 236-242
(١٢) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص٢٢٠؛ للمزيد من التفاصيل عن نظام البريد، انظر:
Henry : History of Mongols. Vol, 1., London 1876, p. 257-258; Tim Mcneese: Marco Polo, p. 101-102; Bedelova: Kublai Khan's, p. 26-27; Lawrence Impey: Shongtu, The Summer Capital of Kublai Kham. Geographical review, oct. 1925, p. 585-586.
(١٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، صححه الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد،لبنان ١٩٨٣م، ص٤٩١؛ تاريخ الزمان: ترجمه: الأب إسحق أرملة، دار المشرق، لبنان ١٩٨٦م،

ص٣١٨؛

Prowdin : The Mongol, p. 331;

(١٤) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص٢٢١؛ عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٨٢؛

Henry : History of Mongols. Vol, 1., London 1876, p. 260-258.

(١٥) تاريخ مختصر الدول، ص٤٩١.

(١٦) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص٢٢١؛ عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٨٢.

من الجدير بالذكر أنه في عام ١٢٥٣م وجد قوبيلاي في البوذية أفضل طريقة يلصق بها نفسه كديانة أقوى من الصين وتوفر له أيديولوجية موثوقة تستطيع تبرير غزو العالم وفرض السيطرة عليه، حيث يصبح فيما بعد القيصر والبابا ورئيس الدولة ورأس الكنيسة ومصدر الخلاص الروحي. مان جون: كوبلاي خان ملك المغول، ص١٦٢.

كما كان قوبيلاي يؤمن بالخرافات ويعتمد بشكل كبير على المنجمين فكان لديه أكثر من ٥٠٠ منجم وكان يأخذ بآرائهم، حيث اعتمد عليهم في أموره الشخصية وما يتعلق بشعبه، Tim Mcneese: Marco Polo, p.96

(١٧) رحلات ماركو بولو، ج٢، ص٢٣.

(١٨) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٢٣-٢٤.

(١٩) ماركو بولو: رحلاته، ص٢٤-٢٥.

(٢٠) رحلات ماركو بولو، ج٢، ص٢٥؛ أحمد جلايلي: دور المهندس المعماري المسلم اختيار الدين في تشييد مدينة بكين، عاصمة أسرة يوان المغولية بالصين (٦٦٥-٧٧٠هـ/١٢٦٦-١٣٦٨م)، مقال في مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد ١٣، عدد (١) جانفي ٢٠٢١م، السنة الثالثة عشر، ص٣٧٤؛

Hilde Brand (J.R): The World's Greatest, p. 510-511.

(٢١) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٢٦.

(٢٢) رحلات ماركو بولو: ج٢، ص٢٦-٢٧؛ أحمد جلايلي: دور المهندس المعمار المسلم اختيار الدين، ص٣٧٤-٣٧٥؛

Hilde Brand (J.R): The World's Greatest, p. 512-513.

(٢٣) رحلات ماركو بولو: ج٢، ص٣٨.

(٢٤) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٣٩-٤٠.

(٢٥) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٤٠.

(٢٦) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٤٠-٤١.

من الجدير بالذكر أن المغول كان يشربون لبن الأفراس، الذي يعالجونه بطريقة تجعل فيه صفات النبيذ الأبيض، ونكهته وهم يسمونه في لغتهم كيمورس. ماركو بولو: رحلاته، ج١، ص١٣٥؛ جوانفيل مذكراته، القاهرة ١٩٦٨م، ص٢١٧-٢١٨. ولم تكن النساء أقل ولعًا من الرجال بالخمرة وشرب النبيذ فكان ينغمسن في الشرب بكثرة مثل الرجال تمامًا حتى يغنين ويتصايحن مثلهم وقت الشرب والاحتفالات، فالسكر لم يكن يعتبر امرًا مغيبًا في نظرهن. جورج لاين: عصر المغول، ترجمة تغريد الغضبان، مراجعة: سامر أبو هواش، أبوظبي، ٢٠١٢م، ص٢٢٧؛ وليام الرديريكي " بعثة وليام الردبيركي، ترجمة: بيترجاسون وديفيد مورغان، لندن ١٩٩٠م، ص١٩١.

(٢٧) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٤١.

كان المغول يتغذون على لحوم الحيوانات على اختلافها من خيول وكلاب وذئاب وثعالب وفئران وخنازير، وفي أحيان أخرى كانوا يأكلون لحوم الآدميين، خاصة لحوم أعدائهم، ويشربون دمائهم وفي أثناء الحروب عندما لا يجدون ما يأكلون كانوا يأكلون لحوم أحد منهم. حامد زيان: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ج١، القاهرة ٢٠٢٠م، ص١٥٢ ؛

Henry : History of Mongols. Vol, 1., London 1876, p.53.

كانوا يأكلون أي لحم وجد على حد قول السيوطي: تاريخ الخلفاء، القاهرة ١٩٧٥م، ص٧٤١؛ ويذكر ابن العماد الحنبلي أنهم كانوا " لا يحرمون شيئًا "، انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٠٠هـ،

ج٥، ص٦٥.
(٢٨) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٤١٥.
(٢٩) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٤٢.
(٣٠) رحلات ماركو بولو، ج٢، ص١٩.
من الجدير بالذكر أنه بعد موت الخان الأعظم، كانت تؤول جميع نسائه إلى أكبر أبنائه، وله الحق في أن يتزوج بمن يشاء منهم وذلك باستثناء والدته، كما كان له الحق أيضًا أن يمنحهن لأصدقائه أو يطلق سراحهن. فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص٣٥٢؛ عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١١٨,
(٣١) رحلات ماركو بولو: ج٢، ص٢٠-٢١.
(٣٢) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٢١.
(٣٣) رحلات ماركو بولو، ج٢، ص٢١.
(٣٤) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٢١.
(٣٥) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٢١.
(٣٦) رحلات ماركو بولو: ج٢، ص٤٣ ؛
Henry : History of Mongols. Vol, 1., London 1876, p. 265.
(٣٧) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٤٤.
(٣٨) ماركو بولو: رحلاته، ج٢، ص٤٤.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية والمعربة:

١) **ابن بطوطة:** رحلة ابن بطوطة، مراجعة: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٦م.

٢) **ابن خلدون:** تاريخ ابن خلدون المسمى " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذي السلطان الأكبر "، دار الكتب العلمية، لبنان، طبعة أولى ١٩٩٢م.

٣) **ابن العبري:**

- تاريخ مختصر الدول، صححه الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد، لبنان، ١٩٨٣م.
- تاريخ الزمان، ترجمع الأب إسحق أرملة، دار المشرق، لبنان ١٩٨٦م.

٤) **ابن العماد الحنبلي:** شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٣٠ه، ج٥.

٥) **جوانفيل:** مذكارته، القاهرة ١٩٦٨م.

٦) **السيوطي:** تاريخ الخلفاء، القاهرة ١٩٧٥م.

٧) **ماركو بولو:** رحلات ماركو بولو، ترجمة: عبدالعزيز جاويد، ثلاثة أجزاء، مكتبة الأسرة ٢٠٠٤م.

٨) **الهمذاني:** الإيلخانيون تاريخ هولاكو، ترجمة: محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد الصياد، ج١، مجلد ٢، وزارة الثقافة، د.ت.

ثانيًا: المراجع العربية والمعربة:

١) **أحمد جلايلي:** دور المهندس المعماري المسلم اختيار الدين في تشييد مدينة بكين، عاصمة أسرة يوان المغولية بالصين (٦٦٥-٧٧٠ه/١٢٦٦-١٣٦٨م) مقالة بمجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد ١٣، عدد ١ جانفي ٢٠٢١م، السنة الثالثة عشر.

٢) **أحمد حطيط:** حروب المغول دراسة في الاستراتيجية العسكرية للمغول من أيام جانكيزخان حتى عهد تيمورلنك، دار الفكر اللبناني، بيروت، طبعة أولى ١٩٩٤م.

٣) **بارنولد:** تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٦م.

٤) **برتولد شيولر:** العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد أسعد عيسى، مراجعة: سهيل زكار، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.

٥) **جورج لاين:** عصر المغول، ترجمة: تغريد الغضبان، مراجعة سامر أبوهواشي، أبوظبي، ٢٠١٢م.

٦) **حامد زيان:** تاريخ الأيوبيين والمماليك، ج١، السياسي، القاهرة ٢٠٢٠م.

٧) **رجب محمود إبراهيم:** تاريخ المغول وسقوط بغداد، مكتبة الإيمان، المنصورة، طبعة أولى ٢٠١٠م.

٨) **السيد الباز العريني:** المغول، دار النهضة العربية، ١٩٨١م.

٩) **فؤاد عبدالمعطي الصياد:** المغول في التاريخ، دار النهضة، بيروت ١٩٨٠.

١٠) **عباس إقبال:** تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة: عبدالوهاب علوب، مكتبة المهتدين، ٢٠٢٢م.

١١) **مان جون:** كوبلاي خان ملك المغول الذي أعاد بناء الصين، ترجمة: أحمد لطفي، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، الإمارات المتحدة ٢٠١٣م.

١٢) **محمد مؤنس عوض:** الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى، طبعة أولى، عين للدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٢م.

١٣) **هوخام هيلدا:** تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين، ترجمة: أشرف محمد كيلاني، المجلس الأعلى للثقافة، مصر ٢٠٠٢م.

١٤) **وليام الروبريكي:** بعثة وليام الروبريكي "، ترجمة: بيتر جاكسون وديفيد مورغان، لندن ١٩٩٠م.

ثالثًا: المراجع الأجنبية:

(1) Bedelova Gulzhan: Kublai Khan's role in The Cultvral development of The Yuan Empire 2013.

(2) Henry Howorth: History of Mongol The 9th century to the century. Vol, 1.,

London 1876.

(3) Hilde Brand (J.R): The Warld's Greatest overl and explorer How Marco Polo Penetrated for Thest Asia, Washington, 1920,
(4) Lunjing: Kublai Khan ans his Empire Shall Be reconsidered in " World Hatizon " China 2014.
(5) Mike Edwards: Marco Polo in China, 2014.
(6) Prowdin (Michael): The Mongol Empire, London 1940.
(7) Tim Mcneese: Marco Polo and The Realn of Kublai Khan, 2014.
(8) Saunders (J.J): The History of Mongol Conquests, London, 1971.